هذا الكتاب

توحى لنا أمراض القلب الولادية بصور [مباشرة وغير مباشرة] بقدرة الله سبحانه وتعالى. فنحن ندرك من دراستنا لها أن اكتمال الخلق لا يتحقق إلا بالخلو من أخطاء كثيرة ومتعددة، وكل هذه الأخطاء واردة، وذات وجود، ولا تتحقق السلامة ولا الصحة ولا الصورة الطبيعية من التكوين إلا بالخلو من كل هذه الشذوذات والأخطاء.

وتذكرنا هذه الأمراض فى التكوين بالنعمة الكبرى التى أسبغها الله علينا، ولولا هذه الحالات المرضية ما أدركنا قيمة السلامة والصحة.

وتفتح هذه الأمراض أعيننا على التفكير فى التكوين الجنينى ومراحله، فبدون دراسة هذه الأمراض لم يكن من الممكن أن نفهم كيف تم التكوين فى المراحل الجنينية، ولا تزال دراسة الأجنة تكشف لنا عن كثير من دقائق الخلق والتكوين.

وتعطينا هذه الأمراض الولادية فرصة رحبة للتفكير فى علاجها والتغلب على الآثار الناشئة عنها، وليس غريبا أن التطورات التى حدثت فى جراحات الأمراض الولادية كانت بمثابة أحد الأسباب التى تطورت بفضلها جراحات القلب وتقنياتها المختلفة.

وهذا الكتاب عن أمراض القلب الولادية (الخلقية) كتبته لعشاق الثقافة العامة وللمهتمين بالثقافة العلمية، وفى ذات الوقت كتبته للأطباء الشبان من غير المتخصصين فى أمراض القلب الولادية، وكتبته أيضا للمرضى وذويهم، وللعاملين فى الخدمات الطبية والاجتماعية. وكنت مع هذا كله حريصا على أن يحظى برضا المتخصصين فى موضوعه، وقد وضعت نصب عينى طيلة كتابته ذلك الوصف المبدع الذى وصفه به الطبيب العظيم قاضى القضاة ابن رشد كتابًا من كتبه وهو كتاب فى الفقه فسماه: «بداية المجتهد ونهاية المقتصد».

❑❑❑

وقد انتهجت فى ترتيب فصول هذا الكتاب منهجا مختلفا عن المناهج المتبعة – حتى الآن – فى الحديث عن أمراض القلب الولادية، وبعضها يقسم هذه الأمراض تبعا للزراق أو انعدامه، وبعضها الآخر يقسمها تبعا لحدوث التحويلة.. إلخ. وقد آثرت أن أتحول عن كل هذه المناهج إلى منهج آخر يعالج كل مرض من هذه الأمراض كموضوع قائم بذاته ودون أن يكون جزءا من مجموعة متشابهة من الأمراض المشتركة فى بعض الخصائص، والمختلفة بالطبع فى خصائص أخرى، وإن كان – أى المنهج الذى اتبعته – فى ذات الوقت يضع الأمراض المشتركة فى فصول متتابعة، كما يشير فى الحديث عن كل منها إلى أوجه الشبه بينها وبين غيرها، وهكذا جمعت فى منهج تأليف وترتيب هذا الكتاب بين

خصائص التأليف الموسوعى، وسمات التأليف الأكاديمى، وطبيعة التأليف للثقافة العامة دون أن أغلب أيًا من هذه المناهج الثلاثة على غيره.

كذلك تعمدت أن أقدم فى هذا الكتاب حديثاً عن الأمراض الولادية الصمامية التى لا تزال تدرس فى كليات الطب مع غيرها من الأمراض الصمامية ذات الأسباب المختلفة، وذلك باعتبار موضع هذه الأمراض، ولكنى وجدت أن إهمال الحديث عن هذه الأمراض فى كتاب عن الأمراض الولادية (الخلقية) كهذا الكتاب يعد نوعًا من التعسف، وإن كان ورودها فيه مما يعد خروجًا على المألوف.

وينبغى هنا أن أشير إلى أن كتب طب القلب تتناول ارتخاء الصمام المترالى على سبيل المثال فى الفصل الخاص بالأمراض الصمامية، نظرا لأن سببه قد لا يكون ولاديًا.. إذ إن له أسبابًا أخرى كما نعرف.. ولكن هذا لا يعنى بالطبع ألا نتحدث عنه فى كتاب مخصص للحديث عن أمراض القلب الولادية.

وينطبق هذا بصورة أو بأخرى على الأنواع المختلفة من ضيق الصمام الأورطى التى تناولناها فى ثلاثة فصول من فصول هذا الكتاب المخصصة للحديث عن الأمراض الولادية المختلفة.

وأعترف أنى تماديت فى هذا المنهج فجعلت أول الأبواب المخصصة للحديث عن الأمراض خاصا بارتخاء الصمام المترالى، وبضيق الصمام الأورطى، وقد صدرت فى هذا المنهج عن تقديرى

لدى انتشار الإشارة إلى وجود هذه الأمراض عند نسبة لا يستهان بها من الذين يجرون فحوصا روتينية، بل إنها تفوق فى وجودها وتردد ذكرها كل أمراض القلب الولادية الأخرى.

❑❑❑

وكنت قد كتبت المخطوطة الأولى لهذا الكتاب مرتبا فصوله تبعا لنسبة شيوع الأمراض، بادئًا بالثقب الحاجزى البطينى، ثم الثقب الحاجزى الأذينى، فالقناة الشريانية السالكة، فرباعية فالو، فضيق الصمام الرئوى، فتضيق قوس الأورطى، ثم تبدل وضع الشريانيين الكبيرين.. وهكذا.

ولكنى وجدت أن هذا المنهج يصعب من قراءة مثل هذا الكتاب من أجل الثقافة العامة، فضلا عن أن هذا المنهج يفقد أهميته ودلالته فى العيوب الأخرى الأقل انتشارًا حيث تكاد تتقارب نسب وجودها إلى الحد الذى يجعل تقديم أحدها على الآخر أمرًا لا يستند إلى مبرر قوى، ومن ثم فقد آثرت أن أعدل منهجى بحيث أبدأ بإصابات الصمامات محتفظًا فى ذات الوقت بالمكانة الأولى للحالة التى أصبحت تفرض نفسها فى تقارير صدى القلب، وفى كثير من عيادات الفحوص الجماعية، وهى حالة ارتخاء الصمام المترالى، وأتبعتها بالحديث عن حالة الصمام الأورطى ذى الشرفتين، باعتبار أن هذه الحالة تمثل ٢٪ من صمامات الأورطى، ولم يكن منطقيًا كذلك أن أترك الصمام الأورطى دون أن أتحدث عن نوعين من ضيقه، وهما: الضيق تحت الصمامى، والضيق فوق الصمامى، ومع

هذا لم أتطرق إلى الموضوع الأكبر المتعلق بالصمام الأورطى وضيقه وارتجاعه، وهذا الموضوع هو من صميم الحديث عن أمراض الصمامات وليس الحديث عن الأمراض الولادية (الخلقية) بمجاله.

ومع هذا فيهمنى أن أنبه فى هذه المقدمة إلى أن العيب الحاجزى البطينى هو أكثر العيوب الولادية انتشارا، وأن رباعية فالوت هى أكثر العيوب الزراقية انتشارا، وأن تبدل وضع الشريانين الكبيرين هو أكثر العيوب الزراقية انتشارا فى مرحلة ما بعد الولادة مباشرة، وأن نقص تنسج البطين الأيسر هو أكثر أسباب الوفاة فى الأسبوع الأول من الحياة.

□□□

وينبغى أن أشير كذلك فى هذه المقدمة إلى أننا كأطباء لا نصادف الأمراض الولادية فرادى، وإنما نحن نواجه فى حالة المريض الواحد باجتماع أكثر من صورة من صور الأمراض الولادية، وبالطبع فإن اجتماع أكثر من مرض فى بعض الأحيان قد يكشف من إصابة أو شكوى ما، وربما - وهذا وارد أيضًا - يتغلب أحد الأمراض على بعض الآثار السيئة أو السلبية لمرض آخر فيحدث العكس بل تصل حكمة الخالق جل فى علاه فى هذا الصدد إلى تعليمنا مبدأ مهما من مبادئ الحياة والطبيعة، وهو أن الحياة نفسها لا تستقيم فى وجود بعض الأمراض الولادية إلا إذا وجدت أمراض ولادية أخرى تحل بعض المشكلة الكبيرة الناشئة عن وجود مرض كبير.

وهكذا يصبح بعض المرض علاجًا لبعضه الآخر، وهى صورة أخرى من صور قدرة الخالق سبحانه وتعالى.

كما ينبغى لى أن أشير إلى أنه فى حديثى عن الأمراض الولادية المختلفة التى يضمها هذا الكتاب قد تناولت - فى أغلب الأحيان - أكثر الصور شيوعًا واضعًا فى الاعتبار ما يقدره القارئ من أن هذه الصور المختلفة من الأمراض ليست شيئاً واحدًا لأنها بالطبع ليست إنتاجًا صناعيًا نمطيًا.

وقد استخدمت فى التعبير «العربى» عن كثير من الأمراض والأحوال المرضية والفحوص والاستطلاعات وحتى فى الجمل الرابطة بين هذا كله، كثيرًا من المصطلحات والكلمات التى قدر لى على مدى السنوات السابقة أن استعملها فيما كتبت من مقالات وبحوث وملخصات أو أن أدعو إلى استعمالها، وانحزت إلى المرادفات العربية التى وضعتها من خلال أكثر من عمل علمى فى هذا المجال، فقد اشتركت مع أستاذى المغفور له الدكتور محمد عبد اللطيف إبراهيم فى ترجمة قاموس توبل الذى صدر عن دار الكتاب المصرى - اللبنانى ضامًا مقابلات عربية لأكثر من خمسين ألف مصطلح طبى، كما شرفت من قبل بالعمل معه فى عملين علميين طبيين مهمين هما: كتابه «دروس فى الجراحة الإكلينيكية» الذى طبع عدة مرات كانت أولاها فى جامعة الزقازيق، ثم فى المركز العربى للمطبوعات الصحية (أكمل) بالكويت، التابع لجامعة الدول العربية، وقاموسه الذى طبع أولاً فى جامعة الملك سعود ثم فى دار هديل للطباعة والنشر.

وسيلاحظ القارئ انحيازى إلى عديد من الأفعال والمصطلحات، من ذلك على سبيل المثال استخدامى لفعل البزوغ لمقابلة المعنى الذى يدل عليه الفعل الإنجليزى arise، وفى مثل هذا الاستخدام فإنى لا أحدث بلبلة مع ألفاظ اصطلاحية استخدمت من قبل على نحو ما استخدم السابقون فعل التفرع للدلالة على هذا المعنى.

كما أنى استخدمت تعبير تضيق قوس الأورطى للدلالة على ما يسمى فى بعض الكتابات السابقة «ضيق برزخ الأورطى»، واستخدمت مصطلح «الارتخاء» للدلالة على ما يسمى فى اللغة الطبية الشائعة الآن «تدلى الصمام المترالى»، فضلاً عن أنى استخدمت- فى كثير من الأحيان - لفظ «الأمراض الولادية» الذى هو أكثر صحة من لفظ «الأمراض الخلقية».

وقد اعتمدت فى تأليف هذا الكتاب على عدد كبير من المراجع الطبية من الكتب والمقالات والبحوث، ومن بين الكتب التى اعتمدت عليها الكتب الثلاثة الكبرى فى القلب المنسوبة إلى مؤلفيها العظماء: برونوولد، وهيرست، وجوليان، فضلاً عن الفصول الخاصة بالقلب فى كتب الأمراض الباطنة الكبيرة المنسوبة إلى مؤلفيها العظماء: هاريسون، وسيسل لوب، وهارفى، وبالإضافة إلى هؤلاء فقد اعتمدت على مجموعة الكتب التى كتبت للطلبة من أمثال كتب جوردان، وجوليان، وكتاب ليبرثيسون فى أمراض القلب الخلقية، كما اعتمدت على مجموعة الكتب المتوسطة بين هذه وتلك، وقد أفدت بصفة خاصة من كتابى ليثام، وسوكلو.

وكان من الطبيعى مع كل هذه الكتب الحديثة أن ألجأ إلى الكتب القديمة نسبيا التى بدأت فيها مطالعة أمراض القلب، وقد نُحتت فى ذهنى صور أمراض القلب على نحو ما قرأتها فى هذه الكتب، وفى هذا الصدد أذكر كتاب صمويل أورام.

ومن تراثنا العربى الحديث أفدت أيما إفادة مما كتبه الدكتور بسام الحلبى فى جامعة حلب وما كتبه من قبله أساتذة جامعة دمشق وما قدمه الدكتوران أسد الشعرة وليلى زنيبر فى كتابهما.

❑ ونظرًا لأن هذا الكتاب هو الأول من كتابين متتاليين تصدرهما (دار المعارف) فى ذات السلسلة فقد رأيت أن يضم هذا الكتاب الأمراض الخلقية الصمامية، وأمراض الوضع الشاذ للقلب، فضلاً عن مقدمات وافية عن التقسيمات المختلفة لأمراض القلب والنمو الجنينى للقلب ونحو معرفتنا بالتشريح القلبى والوسائل المعينة على التشخيص على أن يتضمن الكتاب الثانى بقية أمراض القلب الولادية.

بقى أن أعترف أننى كتبت هذا الكتاب لأول مرة منذ اثنى عشر عامًا ولازلت أنقح فيه حتى استعصى – فى نظر زملائى – علىَّ التنقيح، مع أنه لا يزال فى حاجة إليه.

المؤلف